سُهْدُ الرُّعاة

«كِتَابُ الهدَندَوَة، العَرَاءَات، السَّاسَرِيب، وَالنَّبِيَّة»

أنس مصطفى

سُهْدُ الرُّعاة

«كِتَابُ الهدَندَوَة، العَرَاءَات، السَّاسَرِيب، وَالنَّبِيَّة»

إلى والدي الأستاذ مصطفى

إلى أمَّي وإخوتي

إلى روحُ خالِي منعم وهو يرحل من بيننا سريعاً هكذا..

ثمَّ إلى فاطمة وهي تأتي كفجرٍ وضيء..

«قالوا إنَّ سبعةَ الآفٍ من السِّنينِ قد مَضَتْ، لكنَّ النَّرجسَ لا يزالُ غضَّاً طريَّاً لم تصل إليهِ كفُّ أيِّ أملٍ بعد».

أبو يزيد البسطامي..

..

..

أُوبْهَـر

«والطُّيُورُ أجملُ مَن آمَنَ، والبحرُ أمَل».

هُوَ البَحرُ إذَاً
لَكنِّي لا أَعرِفُ كيفَ يُكْتَبُ البَحر..

البَحرُ حُزْن، أَو هُوَ مَلجَأُ الحُزْنِ كُلِّه في الأَكوَانِ كُلِّهَا، يُسْلِمُهُ أَوَّلَ اللَّيلِ الطُّيور، تُسْلِمُهُ آخِرَ اللَّيلِ الكَائنَات، وَالطُّيورُ أَجمَلُ الحُزن، لأَنَّهَا آمَنَت، لأَنَّهَا أَجمَلُ مَن آمَن، لَكنِّي لا أَعرِفُ كيفَ يُكتَبُ الحُزن، كمَا لا أَعرِفُ كَيفَ تُطْوَى الحَيرَة، كمَا لا أَعرِفُ لِمَ لَسنَا طُيورَاً؛ مَحْضَ جَنَاحٍ وَعُذُوبَة، نَقطَعُ زُرْقَةً إثْرَ أُخرَى، لَكنيِّ أَعرِفُ الحُزن؛ أَعْرِفُهُ اليتيم، هُوَ حُزنٌ فَقَط، هُوَ لا يُشْبِهُ أَحَدَاً سِوَاه، وَلا يُشبِهُهُ سِوَاه، لَكنيِّ لا أَعرِفُ هَل الأرضُ وَحدَها أم الأكوَانُ كُلُّها حُزْن، وَالحُزنُ مَاء، أَينَمَا كَانَ مَاءٌ يُبْصَرُ الحُزنُ نقيَّاً وطيِّباً، لذَا فَالمطرُ حُزْنٌ، وَالبَحرُ حُزْنٌ،

وَالحنَانُ حُزْنٌ، وَالفِرَاقُ حُزْنٌ، وَالدَّمعُ حُزْن، وَلولا الدَّمْعَةُ لانْتَهَى الحُزنُ بِالكَائِنَات؛ الدَّمْعَةُ النَّبِيَّة، تَدْعَكُ الحُزْنَ في القَلْبِ ولا يُسْلِمُ نَفْسَه إلاَّ إليهَا؛ لأنَّهَا مِثْلُه، لأنَّهَا مِنْه، من حَشَاه، وَلأنَّها بحرٌ أيضَاً، أَو هيَ نُطفَةُ البَحرِ في النَّاس..

والبَحرُ مَقطُون، يَقْطُنهُ العَارفُون، فَالعَارِفونَ غَرقَى، وَكلَّمَا تَوَغَّلتِ الأشياءُ في مَعَارِفِها كُلَّما قَطَنَتِ البَحر؛ لأنَّها غُربَة، وَلأنَّهُ سَكَن، وهوَ سُكُون، وَمَن أَهْدَرَ سُكُونَهُ فَقَدْ تَوَغَّلَ في يَابِسَة، فَقَد رَحَل، هَكَذَا فَالسُّفنُ سَاكِنَة، وَالموجُ ساكِن، وَالفَوَانِيسُ في البَحرِ سَاكِنَة، وَالنَّجمُ سَاكِن، وَالزُّرْقَةُ سَاكِنَة، وَالأمُومةُ سَاكِنَة، وَاَللَّيلُ سَاكِن، وَاللَّيلُ لمن فَاتَهُ اللَّيلُ قِطعَةٌ مِن البَحرِ أَيضَاً..

إذاً لا يأسَ بَعْد، فَوَرَاءَ اليَابِسَاتِ بَحْر، فَمَن انتَوَى العَودَةَ لِزمَهُ أَن لا يَلْتَفت؛ أَن يُغمِضَ عَينَيهِ وَيمضِي بحُلمٍ أَزرَق، مَهمَا اليَابِسَةُ تُجْهِش، لأنَّ الدُّمُوعَ ليْسَت لهَا..

مَا أظُنُّه:

أَنّ السَّفِينَةَ رَاسيَة، وَأنَّها مُطمَئنَّة، وَأنَّ فَوَانِيسَهَا تَرتَاحُ بِصِدْقٍ عَلَى المِيَاه، وَأنَّ الرَّصِيفَ خَالٍ مِن المارَّة، وَأنَّ الطُّيورَ حَطّت، تُغدِقُ الحَنَانَ وَالأُلْفَة، وَالدُّنيَا؛ الدُّنيَا تَهْدَأ..

وَأنَه بَحر..

وَأنَّهُ الآنَ أَيضَاً..

..

..

الهدَنْدَوَة وَحْدَهُم

كانَ ذلكَ ما يخُصُّ السَّنَابِل../

..

..

أَسْألُ عَنْكِ كَثِيراً
يَأخُذُكِ العمرُ للشَّوارعِ المكتوبة..

ومَشَيْنَا بِمَحْضِ القَلْبِ
مَا كَانَ رَحِيماً أبدَاً..

قُلتُ لَكِ الخضرَاء:
لا يسعنا أَن نَسْتَأنِفَ الحياةَ باكِراً

فالمُنتظَرُ يَقِلّ،
ولا نَزَالُ في أوَّلِ الحُزن..
وكنتُ لا أَقوَى
لأنَّني على مَرِّ الحَنين..

لكنَّ الصَّباحَ الَّذي يَخُصُّك
لم يَعُد..

فقط هكذا..

فكيفَ الجُّلُوسُ إلَيكِ..؟
كيفَ المُتبقِّي والدَّاكنُ أَكثَر..؟

..

..

كُلُّ ذَلكَ كانَ مَحْفُوفَاً بِكِ
ولَهُ طَعْمُ أيَّامِك
ثمَّ لَمْ أَعْثُر عليكِ..
كأنَّكِ قَدْ رَحلتِ بِي

ولَمْ أزَلْ مَعْصُوباً ببَصِيصِك..

كأنَّكِ ما يَتَعَذَّر،
ما يُهْدَرُ أبَداً..

..

..

كَانَ العُمرُ كَثِيفَاً
فَقُلْتُ نُغادِر..
لأنَّ ما عادَ مِنَّا مَحْضُ طَرِيق..

كُنْتُ مُتْعَبَاً
قَلْتُ لكِ عِندَ الوَحشَة
نَتَسَوَّلُ الغُربَاء..

قُلْتُ لَكِ الله..
وبَعْد..

الآنَ هُنَا

الدُّنيَا كما أَخبَرتِني،

البَيْتُ كَمَا تَتْرُكِيْنَه

ولا أحَدَ يُسَاوِر..

..

..

انتَظَرْتُ مَرِيرَاً

كُنْتِ وَعَدْتِنِي فدَخَلْتُ اللَّيل..

لَكِنِّكِ لَمْ تُضِيئِي

فَلَكِ الحَنِين،

الهَارِبُ أبداً،

وما تَتَذَكَّرِينهُ مِنِّي..

ولِيَ الطَّرِيق..

لأنَّ عَلَيَّ اللَّحاقَ بِهِم

لِقاءَ قَهوةٍ أخِيرَة،

لِقاءَ أَخِير..

الآنَ بِلا تَلاويح..
فالهدَندَوَة وَحْدَهُم
يَتجاذَبُونَ أطرافَ الحَنين
لا يُوَدِّعُونَ أحَداً..

كُنتِ تُنَادِين
كنتُ بَعِيداً فظَنَنْتُهُ صَوْتَك..

كنتِ تُنَادِين
كنتُ بعيدَاً فَلَمْ ألتَفِت..

وإذَاً على وَشْكِ النَّفَاد
تمَنَّيتُ لَو أقُولُ لَكِ:

تِلكَ الأوقَات..
تِلكَ الأوقَاتِ لها وَجْهُك..

..

..

السِّيسَبَانُ الَّذي يَمضي لِحَالِ حَنينِه

للتَّوِّ لَيْلٌ ومُهاجِرُون/

ما يَنْزِلُ في النَّوَافذِ البعِيدَة
كانَ داكِنَاً..

العَابِرُونَ سريعاً
لا لأَحَدٍ
توقَّفُوا لِوَهلة/
تَنْزِلُ أيَّامهُم..

السَّتائِرُ البيضَاء/ السَّمَاءُ المُجَاوِرَة/
هُنَا كانُوا
مُتَأَكَّد..

هكَذا على رِسْلِ حُلُمٍ
طَرِيحُونَ أَكثر
نُخَمِّنُ أوقَاتَاً بعيدَة..

ورَتَاين..

قُولِي لِي:
أنَّ هذَا محضُ عَابِر/
أنَّنا لا نزَالُ هُناك
أنَّ البابَ الصَّغِيرَ تَفتحِينَهُ أنتِ/

القُرَى الَّتي تَغيبُ
خلفَ رُكَّابها
وحدَها انتظَرَتْهُم
في المُفترَقاتِ الضَّريرَة/
تفقَّدَت رُجُوعَهُم..
وحدَها..

السَّيْسَبَانُ الَّذي يَمضي
لِحَالِ حنينه
(مُمْعِنَاً في العُذُوبة)
يبتلُّ كثيرَاً..
تَترُكِينَه هكذا..؟
والمطر..؟

الأبوابُ الَّتي لن نَطرُقَها يوماً
ليسَ بَعْد..

قُولِي سنبقَى مرَّةً نَاصعَة،
نَقتسِمُ السِّيَاجَ
جنَاحَاً
جنَاحَاً..

(الأرضُ مُجَدَّداً/ النَّاسُ/ الدَّكاكين/
تَدْخُلُ طيناً بلوحَاتِكَ كُلِّها...

قُولِي مرَّةً
تُسْفِرُ التَّذاكرُ عَن مُنتَظِرين/
وأيَّامٍ مُنَقَّحَة/

أنوارُ الحافلاتِ البعِيدَة
تتخطَّفُ نُورَك
تَسْمَعِينَني..؟
ليسَ نَحوها/

المحطَّاتُ الأخيرَة
محطَّاتٌ أيضاً..

..

..

(ثمَّة الأملُ الَّذي تَحصُدينَه/وضواحِيك/
ثمَّة قُطَّاعُ الحنين/ ملائِكَةٌ بَعْد/ وسَنَابلُ أعمق...

هكذا
لا نزَالُ مُشَجَّرِين/
وعلى قَيدِ نَاس/
نؤَخِّرُ أيَّامنا:
بجرُوحٍ أكيدة/
أشياءَ من هذا الحنين..

مرَّةً بعدَ أُخرَى/
مرَّةً بعدَ أُخرَى/
..
..

(كانُوا يصعدُونَ نحوَ حيَاتِهم/ يُعِدُّونَ قُرىً نَائيةً لِمغاربِها/
أيَّاماً صغيرةً تَكفِي لِحَوَائِجِهم/ ومساكنْ/
لا يأسَ عليهِم/
قُلْتُ سَأَبْقَى/ أَعرفهُم..
قُلتِ ستذهبينَ لِتَعْرِفي..

قلتُ لكِ

يخدشُونَ قهوتَك..).

..

..

الوَقتُ الَّذِي يَخُصُّ فَاطِمَة

أستَعِينُ عَلَى اليُتْمِ بِفَاطِمَة..

.

.

/يَا أبَتَاه إنْ شِئْتَ أن تُجِيزَ عَنِّي هَذهِ الكَأس، ولَكِنْ لِتَكُنْ لا إرَادَتِي بل إرَادَتُك/†

النَّسَيَانُ فَاكِهَةُ الأيَّامِ المُرَّة..

..

..

- نَحتاَجُ لِوَعدٍ مّا؛ لِمَكَانٍ آمنٍ، وَبَصِيصِ ضَوْء..‡

- لا ينَتهِي الضَّوءُ يا فَاطِمَة، هُوَ فَقَطْ شَرْقُ الظَّلامِ فَانظُرِي

شَرْقاً وَأنتِ تَعبُرِين/..
حَدَثَ أن كَانَ الوَقتُ نَاصِعَاً وَكَانَتْ فَاطِمَة،
وَلا تَزَالُ تُبَلِّلُنِي بِمَلامِح، بَرَندَاتٍ خَضرَاء وَجرح..

..

..

ـ تَقُولُ فَاطِمَة: لا يَحِدُّنا شَيءٌ، هُنَا الله..
ثُمَّ حَدَثَ أنْ قَالَتِ التَّناهِي شَرطُ الكَائِنَات، في عَرَائِهِ الفَسِيحِ
تَنطَفئُ جَسَارةُ الأحلام، وَتَشهَدُ الرُّوحُ نُزُولَهَا الأخِير..

..

..

وَتَمُرُّ أعمَارٌ بِلا فَاطِمَة، أعُودُ إليهَا مَنهُوبَاً في آخِرِ الطُّرُقَاتِ
الضَّرِيرَة، أَسرُدُ الأيَّامَ بِحُرقة، تَسمَعُني بِسَمَاح، « إنَّها
المَغَارِب، كَم مَرَّ عَلَيك؟، كُلُّ الطُّيُورِ رَضِيَت وَآبَتْ وَأنتَ
تَبحَثُ عَن خُبزٍ وَعُذُوبَة..»

ـ قُلتُ نَعَمْ، نَعَم يا فَاطِمَة، فَاتَ وَقتُ، وهَا أَنا ذَا أتفَّقدُ وُجُودَاً مُرتَبِكاً وغَريباً، تَتَهَدَّمُ رَائِحَةُ الأيَّام، وَتَنأى أغنِيةٌ إثْرَ أُخرَى، كُنتُ لا أعثُرُ عليكِ وَأُسَمِّي الرَّحيلَ بِوجهِك..
هَكَذَا تَمَادَى القَلبُ، هَكَذَا تَضِيعُ فَاطِمَة..

..

..

ـ تَقُولُ لا..
لا نَصِلُ أقَاصِينَا أَبَدَاً، مَهمَا نَدْنُو سَتُغَافِلُنَا الوِجهَات، لَن نَطمَئِنَّ إذَاً..

-لَم أقُل لَهَا كَانَ العُمرُ سَيَبدُو رَقرَاقاً وَوَاضِحَاً لَولا الغيابُ الَّذِي يَخُصُّهَا..

/وَلِفَاطِمَةَ إشْرَاقُهَا، وَمُنذُ فَاطِمَةَ وَبَعدُ ثمَّةَ ما لَن يَعُودَ أبَدَاً../
لكنَّ ما بَينَنَا سِبتَمْبِرُ قَدِيم، بَرَندَاتٌ خَضرَاء، شَارِعُ نَحو الجَنُوبِ، وعُمر..

كَانَت تُنَادِيني بِصَوتٍ نَاصِع، تنُادِيني لِنُرتِّب الأمَاكِن، نُعِدَّهَا لِمَغَارِب، لَننفُضَ طَرْحَتَهَا المَغسُولَة، لِنُعدَّ الشَايَ مَعَاً، (كَانَ الشَايُ علَيّ، كانَ النُّورُ عَلى فَاطِمَة)..

..

..

- نَعَاِين في دَرْبَك.

- أنَا في الخَرِيفِ يَا فَاطِمَة.

- مِثلَ الطُّيُورِ أنت، يَأتِي الخَرِيفُ لِمَرَّة، مَا بَعدهُ ذَاكِرَةُ الخَرِيف، لا تنتَظِرْ، تُهدِرُ الآتِي..

- قُلتُ ما الآتِي؟

ما الآتِي يَا فَاطِمَة..؟

..

..

في زَمَانٍ آخَر: الشَّوَارِعُ القَدِيمَةُ دُونَ فَاطِمَة، هُنَا بِالذَّات كَانَ صَوتُهَا، الأوقاتُ إليها أَخَّاذَةٌ وَحَمِيمَة، كنَّا نَتَجَاوَر، يَنزِلُ النَّاسُ وَنَبقَى مِثلَ سَنَابِل «لا تَنمُو السَّنابِلُ نَائِيةً أبَدَاً؛ تَقُول»، أضحَك، تَكتُبُ شَيئَاً عليّ، أتَعثَّرُ فِي قِرَاءَتِهَا، تَأخُذُهَا الدُّنيَا لِمَنَازِلَ أَبْعَد..

..

..

تُمطِرُ هُنَا، نَصفُو كَثيرَاً، كَثيرَاً يا فَاطِمَة، تُغَطِّي البُيُوتُ زُرقَتَهَا، يَمتدُّ أُفقٌ فَسِيح، تَمتدُّ خُضرَةٌ بِطُولِه يتخلَّلهَا النَّهر، تَغْمُقُ الأشيَاء، وَتُضَاءُ رَتَاينُ وَنَاس..

- شَايفَة؟ دُخَانُ البُيُوتِ يَا فَاطِمَة..

في تِلكَ الأوقَات لَم تَكُن السِّيَاجَاتُ بَعد، كَانَ في الدُّنيَا عُيُونٌ طيِّبة وَصَبَاحٌ تُعِدَّهُ فَاطِمَة..

..

المدِينَة، بِيُوتِهَا الصَّغِيرَة، ألوَانُهَا الصَّفرَاءُ مَخلوطَةٌ بالمَطَر، الطَّرِيقُ إلى فَاطِمَة يَمُرُّ بأغنَيَاتٍ قَدِيمَة، يقطعُ نَهرَاً وَحَكَايَا، تَدخُلُ المَدِينةُ أغسَاقَهَا مُطمَئِنَّة، تَلُوحُ دَافِئةً وَحَمِيمَة، أنزِلُ في المحَطَّةِ التَّالِيَة، أطرُقُ بَابَاً صَغِيرَاً، تَفتَحُ فَاطمَة، تَهدَأُ الدُّنيَا..

أتَذَكَّر..

..

..

- إستَنَّى نَعَبِّي العَشَا.

- تأَخَّرْت..

ثمَّ حَدَثَ أنْ مَشَيْتُ، أتأَمَّلُ مَعنَاهَا، وَلا أجِدُ طَرِيقَاً لِجَنُوبِ المَدِينَةِ أبَدَاً..

تُرَى يَا فَاطِمَة لا تَزَالينَ تَقُولينَهَا هَكَذَا بطَرِيقَةٍ تَخُصُّكِ وَحدَك: (نَعَبَّي العَشَا؟).

لا زِلتُ مَاشِياً،
لَم تَأتِ حَافِلةٌ بَعدُ وَلا فِرَاقٌ نَزِيه،
لَم يَعُدْ بِالدُّنيا صَبَاحٌ تُحَضَّرِينَهُ أنتِ وَلا عُيُونٌ طيِّبة..

..

..

يااااااااااه يَا فَاطِمَة:

ثَمَّة التَّاسِعَة أبَدَاً..

† الإنجيل.

‡ من كتابة لماهيتاب بركات.

سُفُوح

فَقَط فَوَانِيسنَا..

لا يُعَوِّلُ الرُّعَاةُ إلاَّ عَلَى صَمْتِ وِديَانهم
ولا يُقِيمُون،
لأنَّ الإقَامَةَ خَطِرة
ويَحْذَرُونَ الظِّلالَ مِثلَمَا يَحذَرُونَ النَّدَم..

مُنحَدِرِينَ إلى سُفُوحِهِمُ الأَخِيرَة
مُغَادِرِينَ أَبَدَاً
لأنَّ الخطوَةَ التَّي تَأتي ربَّما الَّتي سَتُضِيء..
مُنْصِتُينَ أبدَاً
لأنَّ إشْرَاقاً يَمُرّ..

..

..

المدِينَةْ

أَكدَاسُ السَّنَوَاتِ المرمِيَّة، سَفَرُ الملامِحِ فِي اللَّيل، عَتمَةُ المحطَّات، الحُشُودُ مِن الوَحشَة، حُزنُ الرُّعاة، الكَلِمَة الجَّارِحَة، اللَّحظَة المجروحَة، الرِّحلةُ مُنفَرِدَاً

وَأَعزَل..

المدينةُ انتظارُ اللهِ في الأَغسَاقِ مَهجُوراً وَهَاجرَاً، آذِيَاَ ومُؤْذَىً، الغُرفَةُ الَّتِي تَنَاقَصَ الأهلُ فيها، وَترَاكمَ الفِرَاق، المدينة الشَّاحِناتُ تهرِّبُ أيَّامَنا، الصَّمتُ النَّحيل، الزَّادُ الأسْوَد، واللَّيلُ الملآن، الملآنُ باللَّيل..

المدينةُ حَيثُ لا نُدرِكُ مَن أخطَأَ، ومَن احتَمَل، مَن غَابَ ومَن سَيَغِيب، الهِجرَاتُ والأَسَى، القَطرَةُ المرَّةُ مِن اللَّيل، الذَّاكِرةُ الَّتي تَعصِف، الوَمْضُ الوَاهِن، الضَّحكةُ المهدُودَةُ والأجنِحَةُ

التَّي انتهَت..
الَّتي انتهت..

المدِينَةُ صَباحٌ لا ينتظرهُ أحَد،
المدينةُ الْخَوف، الثُّقُوب، المديةُ الأُولَى للنَّدَم..

المدينةُ مَمَرُّ الغَربةِ في الغُرَبَاء،
رِحلَةُ الظُّلمَاتِ وَالظُّلم..

المدينةُ لا شَيء
لا شَيء..

المدينةُ لا أَحَد
لا أَحَد..
..
..

أريَـافُ الغَرِيبَـة

مَفقُودُونَ، أَسرَابٌ في حَالِنَا، الَّذِينَ بِلا أَسَى أَنفَقُوا أَسَىً بأسرِه..

ما خلَّفتَهُ في المسَاءِ البَعِيد: الحبِيبَةُ البعِيدَة، الهزِيعُ الأَخِيرُ مِن الأَمَل، النَّصْلُ عَلى بُعدِ عُزلَة..
والتَّي تُوْمِض، الَّتي في صَفَاءِ بزُوغِهَا، عِندَ أسمائِها الأُولَى، الَّتي انطَفَأَت، الصَّبَاحُ الَّذِي شَيَّدتهُ الغَرِيبَة بِشَرْقِ مِرُورِهَا، في مُفترَقَاتِ ضَحكَتِهَا، الصَّباحُ الَّذِي كَانَ صَبَاحَاً أكِيدَاً، النُّورُ لأوِّلِ مَرَّة، الشَّايُ سَرِيعَاً لِتلْحَقَ بالنِّزُوح، العتَبَةُ الأخِيرَةُ مِن البيَت، الشَّارِعُ مُرَّاً، الَّذِينَ بِلا زُوَادَة، آخِرُ المَنَازِلِ لِلتَّو، أوَّلُ التِّيهِ لا أَحَدَ نَادَى..

الغُرَبَاءُ فِي المِقعَدِ المجَاوِر يَتَفَقَّدُونَ غُربتَكَ سَرِيعَاً، الابتسَامَةُ التَّي لا بدَّ مِنهَا لِدَرْءِ ألَم، التَّي رافَقتْك سِنِيناً، التَّي أوصَدَتْ سَمَاءً وَمَشَت، الحبَيبةُ/الغَرِيبة، الغَرِيبَةُ/الحَبيبَة..

في الفنُدُقِ البَعِيد: القَصِيَّةُ العَذبَة، صَوتُهَا لأوِّلِ مَرَّة، خَطُّ حَنانِهَا وَيَدِهَا، الحَنَانُ مَهبِطُ الوَحشَة، التَّي أَوْدَعَتكَ سُمرةً وَمَدِينةَ، الوَدَاعَ طَيِّبَاً وَنَزِيهَاً..

الألَمُ وَحِيدَاً في شَوَارِعَ وَحْدَهَا، السَّنَوَات، الجُرح، أَنتَ مَجرُوحٌ بِأمَل، أَنتَ تَستَدِينُ يَأسَاً لِعُذُوبَة..

سِبتَمْبِرُ المَدِينَة: اللهُ في الشَّقَةِ الأجنبَيّة، في الغُرفَةِ الصَّغِيرَة، في الأرِيكَة البُنِّيَّة، في الوَجَعِ اللَّيلِيِّ، في الطَّابِقِ الخَامِسِ، في الأمَل؛ في الأمَلِ الَّذِي يَنجُو..

الَّذي يَرِنُّ بغَتةً، صَوتُهَا برَائِحَةِ الغُرفَةِ شَرْقَ البَيت، صَوتُهَا بِطَعمِ المَفقُود، صَوتُهَا يَطرِقُ الوَحشَةَ، يُعِدُّ مَسَاءً صَغِيرَاً، وَيُربِّتُ علَى قلَبِك،
صَوتُهَا..

البُيُوت في شُهُورٍ مُبْتَلَّة، البُيُوتُ الَّتي مَرَّت، الَّتي حَمَلَت اللَّيمُون، تلَويحتَهَا، التي أَشْهَرَت الرِّتَاجَاتِ في عَنَاوِينِك، الطُّرُقَاتُ بِلا مُنتظِرِين، المَحَطَّاتُ لا نَتَرَقَّبُ لافِتاتِهَا..

الصَّبَاحَاتُ النَّائِيةُ حُطَامُ صَبَاحٍ وَفِير، أيَّامُ المغَادِرِينَ تَذْوِي، الصَّوتُ الَّذِي رَبَّتَ عَلَى صَوتِك، التَّي تَرَكَتْكَ عُرضَةً للسَّنابِل، التي يُكَلِّلُهَا شَجَرٌ وَارتِبَاك، بُقعَةُ اللَّيل، الحَنَانُ في آخِر البَيت، الحَنينُ عَلى مِشجَبِ الرِّحلَة، البيُوتُ بِلا قادِمة، الحَبيبةُ لأوَّلِ مَرَّة، الحَبِيبَةُ لِمَرَّة، البَشَرُ علَى الشُّرفةِ المُقَابِلة يَرَونَكَ بَشَرَاً عَلَى شُرفَةٍ مُقَابِلَة، لا أَحَدَ يَرَاك،

لا أَحَد..

مِن هُنَا مَرَّت، الَّتي سَتَمُرّ، الأسَى في أُغنَيَاتٍ نَادِرَة، الأغَاني نَفَدَت كُلُّها، القَدِيمُ يَخُصُّ حَبِيبَة، الَّذِي لا يَخُصُّ أحَدَاً، المَسَاءُ بِلا قَطْرَةِ حُلم، المَلامِحُ ضَيَّعَت قَلبَاً وَجَنَاح..

سَافَرُوا..

الوُدَعَاءُ سَتَّفُوا الشَّمسَ مَعَهُم، الأنْبِيَاءُ بأوراقِ رِسَالاتِهِم، سَافَرُوا، الفَتَيَاتُ أوَّلُ المَطَرِ وَطيورُ السِّمْبِرِ المَهاجِرَة، كُلُّهم سَافَروا، كلُّهم..

السَّنَابِلُ التَّاليةُ فَوقَ حُطَامٍ آسِر، القَادِمَةُ تَشتِلُ أفرَاحَاً صَغِيرَة، حُقولُ القَمحِ تَطْرُدُ الغِربَانَ مِن اللَّوحَة، الحَضِيضُ لمرَّةٍ راَحِلَة..

الوَسَامَةُ نَفَدَت سَريعَاً..

عَلَيكِ الطُّيورُ يا أمِّي
لَو حِكَايَة وَأيَّامُ بَحر..

لَو
اليَابِسَة
يَا
أُمِّي

لَو اليَابِسَة..

..

..

أَسْمَاء

بِثَوبهَا الأَبيَض،

وَرُوحِهَا السَّالمة،

تَرْفُو الأَكوَانَ بِنَوْلٍ جميل..

..

..

أَحياناً يَحْدُث..

تَمشِي نجمَةٌ بينَ النَّاس

هكَذَا

ببساطةٍ هَائلة..

تُعَلِّمُهُم الأقَاصِي،
وَسرَّ القَنَادِيل..

أَسْمَاء..
لا تَزْجُرُ العتمَة،
بل تهُدْهِدُهَا كي تطمئنّ،
ثمَّ تَشرَحُ الفَجْرَ لأُمنَيَاتِها..

أَسْمَاء..
يا النُّورُ يُسفِرُ عَن نُورٍ عَمِيق..
..
..

بُيُوت

هَا هيَ المغَارِبُ تصعدُ
جُدرانَ البيوتِ الصَّغِيرة..

البيوتُ الَّتي
فتحَتْ أبوَابَها لمرَّة..
فانْفَتَحَ ألفُ دَرْبٍ مِن اليأسِ والحنين..

البيوتُ الَّتي ودَّعتنا في شهقةِ الفجر
ولَمْ نعرف مُنذُها طريقَ النَّبع أبداً..

ها هي البيوتُ البعيدةُ في اللَّيل،
مَغْيُوْمَةٌ بالمسافَة،
ومُهْدَرَةٌ بالرَّحيل..

تلكَ البُيُوتُ الوحيدَة..
تُرى مَنْ سَكَبَ اللَّيلَ في قَنادِيلها
وأَوْدَعَهَا وحشةً صَافِية..؟

تُرَى مَنْ أوْرَثَها كلَّ هذا اليُتْم..؟

..

..

إِيَابٌ بِطَعمِ القَهْوَة

عَادَ إليهِم أوَّلَ اللَّيل..

انتظَرُوهُ زمانَاً قُربَ
بيوتهِم الصَّغيرَة..
(ينتظرُونَ أَولادَهُم بالقهوةِ
مهمَا نَأوا)..

قالُوا لهُ: يا سرَّ صباحاتِنَا،
ويا نورَ ضحكتِنا..
وكانُوا لا يَزَالُونَ على حَالِهِم
كتُومِينَ كالغُرباء،
مُطْرِقِين،

ولا يُسْرِفُونَ أبداً..
سأَلَ عن أَحوَالِهم
كانوا بخَير..

وحَكَوا..
حَكَوا كثيراً
حتىَّ نُضُوبِ الرَّتِينَة..

لَمْ يَقُولُوا لَهُ
وَحْدَكَ لَمْ تَعُدْ بِخَير..

ولَمْ يَقُلْ لهَم
وَحْدِي لَمْ أعُد..

أَبَدَاً..
أَبَدَاً..

فِرَاق

وسَتَعْبُرِينَ بِي حُقُولَ اليَأسِ كلِّها..

وستقولينَ لِي:
مِن هنا أعودُ أدراجي..

كلُّ هذا الحُلمِ لَك..

فلا تَنتَظِرْنِي،
ولا تَلتَفِت،
وإنْ نَادَيْتُ عَلَيك..

وامْضِ إلى حيثُ تَقْدِر..

ليسَ الحزنُ فِي الفِرَاق
الحزنُ فِي النَّدم..

وأنتَ تعرف..

..

..

غِيَاب

بُحَّةُ صَوتِك،
عُذُوبَتُكِ الحنُونَة،

وطَيْفُكِ قَادمَةً من بَعيد
بِثوبِ الأُم،
وملامِحَ منزِليَّة..

تَطلُبينَ شاياً كعادَتِك
وَتَبتَسمين..
تَبتَسِمينَ تماماً..
كَأنَّ كُلَّ ابتِسامةٍ هيَ الأخيرة..

كأنَّكِ الأخيرَة..

ذالكَ الوقتُ كم كانَ يُشْبِهُك..
وكنتِ مُمْطِرَة..
مُمْطِرةً تماماً..

تُرَى الآنَ أين.؟
كِلانا..

هذهِ الحياة

مجرمةٌ يا غالية..

..

..

بَعِيدَة

مسروقَةٌ منِّي تماماً أنتِ يا حُلمَ المثُول/ وبعيدَةٌ جدَّاً وغَاربةٌ
كَشُرفةِ ذكرَيات../ قُولي لم الطُّرقاتُ تَقفرُ دونَ
خَطوكِ عُنوةً..؟
قُولي لم الأشياءُ تُحزِنُ هكذا..؟
قُولي لم النوَّارُ يمكثُ برهةً زمنَ الخريف..؟

ها قَد أصبتِ القلبَ بعدكِ بالسَّفر/ وَتَركتِ في الدُّنيا حقائبَ
لا تَكُفُّ عن الرَّحيل../

أنتِ البَعيدَةُ خبِّريني
كيفَ أوقدكِ الحَنَان..

أنتِ المضَاءةُ خبِّريني
كيفَ يُطْفِئُكِ البَعِيد..

شِتَاء

«هكذا تضيع تخومُ البلادِ البعيدة»

سيد أحمد بلال

رُوَيدَاً رُوَيدَاً
وَعَبرَ الطَّرِيقِ القَدِيمِ
يَهُبُّ الشِّتَاءُ على رِسْلِهِ..

يَنتَهِي العَابِرُون،
القُرَى،
وَالمحطَّات،
وَالأَزمِنة..

... وَلا شَيءَ يَعلُو سِوَى الذِّكرَيَات
الأغَاني البَعِيدَة،
وَالَّذِي لا يَعود..

هَا هُنَا لا أَحَد..

وَلا أيَّ بَابٍ صَغيرٍ لِنَطرُق..

تُرى كيفَ تاهَ الطَّريقُ بنَا وحشةً إثرَ أُخرَى؟

وهَل لا يزَالُ مكانٌ بعيدُ،

وَغيمُ،

وقَهوة،

وَلا زَالَ في المغرِبِيَّاتِ نَاس..؟

يا لهَذَا السَّرَابِ

شَغُوفُ بِنَا هَكَذَا هَكَذَا،

وَيقطُفنَا وَحشَةً إثرَ أخرَى

ولِمْ نودِّع أيَّامنَا..

ولَمْ نَرجع البيت بعدَ الخَرِيف

خِفَافَاً

خِفَافاً،

ومِن دُونِ منفَى..

سَوفَ نَمضِي إذَاً
وَلا مَوعِدٌ ها هُنَاكَ لدَينَا،
ولا أيّ حُلمٍ لِيجلُو الحَنِين..

يا إلَه البَعيدِ ابتعدنَا كَثِيرَاً
فمُدَّ إلينا قَلِيلاً من النَّهرِ كَي نَرتَوِي،
قَلِيلاً مِن البَيتِ حَتَّى نَنَام..

وَمُدَّ إلينا قَلِيلاً مِن النَّورِ
كَي نَلتَقِي وَردَةً في الطَّريقِ..
وكَي نَقتَفِيك..

ولا تَبتَعِد إنْ نَسِينَا قَلِيلاً

فَفِي العُمرِ نَنسَى..

..

..

شَجَـرَةٌ بِأَسـرِهَا

«سوفَ يجدُ النُّورُ أشجَارَه.

عَاجِلاً أو آجِلاً سوفَ تَجِد الشَّجرةُ ثمرها».

يانيس ريتسوس

قلتُ: اللَّيلُ أَسوَد..

قالَ: الْزَم اللَّيلَ،

اللَّيلُ نُور..

قُلتُ: مَتَى..؟

قَالَ: لِكُلِّ نُورٍ كِتاب..

قُلتُ: المسَافَة..؟

قَالَ: مَسافَة..

قُلتُ: تَعِبت..

قَالَ: تَرضَى..

أَحَدٌ ما حَاولَ النَّجَاة..

أحدٌ اقتَنَصَتهُ غُربَة..

..

..

الغُربَة ذَهابَنَا فِي شَجَرة، ذَهَابُ شَجَرَةٍ في الَّليل..

الغُربَةُ تَربيتَةُ الغُرَباء..

..

..

يَأتِي زَمانُ مُوغلٌ في الشَّجَر..
ثمَّ يَأتي زَمانُ حيثُ لا أَحَدَ على قَيدِ شَجَرَة..

لَكِنَّ الناسَ تُراقُ بالحَنِين
وَهُنَا شَجَر..

..

..

الشَّجَرُ الغَرِيب، في صَمتِ الطُّرقاتِ الوحيدَة، عِندَ سِفوحِ النُّزلِ الأجنبيَّة، عَلى المَدَارجِ البعِيدَة، في انحناءِ الطُّرقات، بينَ قُرَى المسافرِين:
نورُ الشَّجَر..

..

..

الشَّجرُ الأسوَد

أَسوَد..

..

..

وَلكُلِّ وَاحدٍ ما يبعثُ على الشَّجَر..

ولكلِّ شجرٍ سَرَاب..

..

..

الشَّجَر:

الحنَين، الحنَان، الحمِيم، البَيَاض، الغِطَاء، البَرِيق، الوِهَاد، الطَّريق، السُّقوف، الأمَـان، السُّهُوب، السُّطوع، البُيُوت، الرَّحيب،

الحَبيب،

الوَحِيد،

الرَّحِيم،

الغَرِيب،

الجُسُور،

النُّهوض،

القَريب،

الأمَل..

..

..

الشَّجَر:

التُّراب، السَّرَاب، الشِّرُود، القُيود، العُوَاء، العَوِيل،
الرَّيَاح، الهمُوم، السُّهَاد، السُّهوم، الخرَاب، الرَّحِيل،
الحرَيق، الضَّرِير، الغِيَاب، الغُيُوب، النُّحُول، النَّحِيب،
الظُّنُون، العَرَاء، الرَّمَاد،
السَّفَر..

..

..

في النِّهَايةِ المرسُومَةِ فَوقَ تُرابِ المسافاتِ البعيدة، أحدُ ما
سَيُدرِكُ أنَّ مَن أسْلمَ حُلمَه إلى شَجَرَة
لَن
يَعُودَ
إلى
حُلمِه أبَدَاً..

أَنَّ مَن أَسلَمَ أَشجَارَهُ إلى حُلم..
لن يعودَ إلى أشجارِهِ أبداً..

أَحَدٌ ما..

شجرٌ ما..

..

..

هَكَذَا الموت:

شَجَرَةٌ بِأسرِهَا..

.

.

.

سَبُّورَةُ اللَّيل

«ها هيَ الحُلْكةُ تلملمُ النَّوافذَ من حُطامِ الضَّوء».

الثَّقِيلُ
ولَمْ
أَبرَحْهُ
مَرَّة..

لا زالَ أسْرِي، وَلا زَالَ رِحلَتِي وَتيهِي..

..

..

سيَمضِي مِثلَ حُلمٍ غاَمِر، يُجوبُ الطُّرُقاَتِ المُعْدَمَة، البَابُ الَّذِي يُفْضِي إلَيهَا، يَطرُقُ الأَيَّامَ الَّتِي تَعبُر، ويَغنِّي لعُذُوبَةٍ قَاتِمَة..

لِعُذُوبَةٍ قَاتِمَة..

مِثلَ بَصيصِ وَعْدٍ بحياةٍ مُمكِنَة
مثلُ انتِظَارَاتِ يَأسٍ مُحتَمَل..

..

..

سَيَرْسُمُ لوحَاتِهِ في أوَّلِ لَونِها، يَرسُمُها في سبُّورَةِ اللَّيلِ الَّتي تُخَلِّفينَهَا، فِي سُفُوحِ الوَحشَةِ الَّتي تَفتَحِينَ النُّورَ عَليَهَا، سَيُشرِقُ وَاضِحَاً وَرَقيقاً، مِن الهدمِ وَالنَّسَيَان، مِن الطَعمِ المُرِّ للنَّدَم،
مِن السَّرَاب..

فِي اليَومِ الأوَّلِ لِلمَوت، فِي اللَّحظَةِ التَّالِيةِ للافتِرَاق، فِي الصَّدَى الجَّارحِ للصَّرْخَة، فِي السَّوَادِ الأسوَد، فِي الصَّمت..
فِي المفتَرَقَاتِ رحيمَةً،
فِي سكَّةَ الدَّمعَة،
فِي التنَّهِيدَةِ بِأكمَلِهَا..

فِي النُّزُلِ البَعيدِ،
البَعِيدِ يَا حَبيبَة..

..

..

سَيَأتِي كاَملاً وَنَزيهاً،
أنتَظِرُهُ هنُا، قُرْبَ المهجُور، فِي المقَاعِد الَّتي تُغَادَرينهَا، فِي الحنَانِ الَّذِي تُوصدِينه، فِي الشَّوَارِع، فِي الغُرَبَاء، فِي النُّحُول، فِي الوَهم جَليلاً.
وَأُسَمِّيهِ العَنَابِر، أُسَمِّيهِ الكَلِمَةَ عَلَى سَبُّورَةُ اللَّيل، أُسَمِّيهِ الحيَاةَ بأمَلٍ صَغير،
أُسَمِّيه الخُطَامَ ينَهَض،
وَ أُسَمِّيهِ عُيُوناً طَيِّبة..
عُيُوناً طيِّبة..

..

..

سَأُنَادِيهِ،
مِن اللَّيلِ الَّذي يُغَالِبُ نَفَادَه، مِن الرَّاحِلينَ أبَدَاً، مِن الوَسَامَةِ في الجُّرُح، مِن الطُّيورِ سَالِمَةً، مِن السَّرابِ نَقِيَّاً، مِن اليَأسِ مُشْرِقاً، مِن النَّبيَّةِ تَأتِي..

..

..

أَمَلاً
أَمَلاً

أَستَودِعُكِ اليَأس،
اليَأسَ يَا حَبِيبَة..

..

..

غَالِيَة

تُشبهينَ سِرْبَاً من
الحمامِ الأبيض..

ووَدِيعَةٌ مثلَ قُرَى..

مثلَ حُلم،
مَرَرْتِ من هُنَا سَريعَاً..

مَن أوصى عليكِ الغِيَابَ
لِيَحرسَكِ عنيدَاً هكذا..؟

يتُهَا الغَالية

تُرَى هَل تَعبرُ الأسرَابُ سَمَاوَاتِهَا مَرَّتين..؟

..

..

حُلُم

حِينَما لم نَعُد في اللَّيلِ نَسمَعُ
صَوتَ الأُغنَيَاتِ البَعِيدَة،
ولم تَعُد الطُّيورُ تؤوبُ في المغَارِب،
أوْصَدْتُ العَالَمَ مرَّةً وإلى الأبد..

لَكنِّي حَلُمْت..
حَلُمْتُ بِعَينَيكِ تُطَوِّفانِ في المَكَان،
تَقُولانِ لِلَّيل:
(يَا لَيلُ كُنْ دِفئَاً وَسَلامَاً)
فَيَكُونُ دِفئَاً وَسَلامَاً..

حَلُمْتُ بِهِمَا تَمسَحَانِ العَتمَةَ مِن عُيُونِ الفَجر،
تَفتَحَانِ النَّوافِذ،
وَتُغدِقَانِ النورَ على المَكَان..

حِينَهَا كَانَتِ الأرضُ مُرُوجاً أبَدِيَّة،
والسَّماءُ في مُتَنَاولِ القَلب..
وَكُنتِ تَركُضِين
تَركُضِينَ بَعِيدَاً..

بعيدَاً جدَّاً..

تَرفَعِينَ سَارِيَةً فِي المدَى

وتُنادين..

تُنَادِينَ عَليَّ..

..

حُلكَة

وَحدَهَا

تَعرفُ الطَّريقَ إلى القَلب..

تُطفئُ النُّورَ فيه،

تَمضي بفَانُوسها..

وحدَها..

..

..

كَالِيندَرات

أيضَاً..

الشَّجَرَةُ هُنَاك،
كَانَت من قَبل..

الشَّبابيكُ الزَّرقَاء،
قَهوةُ مريم..

وَأنَا..

حُرقَةُ أَن نَمضِي..

شُرُود

لَو تَهطُلِينَ عليَّ شَوقَاً في صَبَاحاتِ الخرِيف

لنعِيدَ

تَرميمَ

المدينةِ

بالنَّوافذِ

والمطَر

..

..

إنسومْنيَا†

وَيُنْظُرُ إلى الأرضِ فإذا بالظُّلمةِ والضِّيقِ
وَقدَ أظلمَ النُّورُ في آفاقها..‡

.

.

أنتِ لا تبُصِرِين اللَّليل
الإبصارُ حِجَابك..

أنَا لا أرَى سِوَاه
أنتِ حِجَابي..

.

.

أَحْلُمُ بالصَّمتِ نَزيهَاً وطَيِّباً..
لا بأسَ بهِ..

لَوْلا الفَتَاة
تَذْرُفُ حلماً
وَسُمْرَةً رَاحِلَة ..

لَوْلا تَدُسُّ حَنانَاً بمعطَفِ القَلب..

لَوْلا سَلَّمَتنِي تَذَاكِرَ نَافِدَة
ومحَطَّاتٍ مَغشُوشَة..

لَوْلا مشغُولَةٌ بالبَهَاء

لَوْلاهَا

لَوْلا الْحَنَان

لَوْلا العُزلَة

لوْلا سَادِسُ يَوم..

.

.

قُلتُ الحنَانُ نُور

العَابِرُونَ نحن، سِرْبُ الكَائنَات..

الغُرباءُ نحن، الظَّمَأ، اللَّهفَة المرمِيَّة، الطُّرقاتُ المحُوَّة،

الخَوف، آخِرُ اللَّيلِ نَحن، الفَاقَة، العَتمَةُ السَّاهِرَة، العُمرُ شَاردُ

وَشَحِيح..

نحنُ بَاقِي النُّور..

نحنُ الدَّمعَةُ خَالصةً للدَّمعَة..

انتظِرْنَا..

انتظِرنَا نَأتِيكَ مَرَّة، نَاصِعينَ مِنَّا، مُرَمَّمينَ بِك..

انتظِرنا مَرَّة..

(..فِي الأوقَاتِ المسكُونة، النَّاحِيَة الخَلفِيَّة مِن البيت، عَصرَ اليَومِ القَدِيم، الصَّبِيَّة بِنُورِ ضَحكَتِهَا، تُعِدُّ أحلامَاً رَقرَاقَةً، تَفتَحُ الشُّبَّاكَ عَلى جَنوب، تَفتَحُ الجنوبَ على فَسِيح..

في تِلكَ النَّاحِيَة لم يدخُلِ اللَّيلُ أبداً..

في تلكَ النَّاحِيَة:

شَجَرُ لَيمُونٍ، وَحَنَان..

ا

ل

حَ

نَ

ا

نُ شَايُ مَساءٍ ويديهَا..

الحنَان مَهبَطُ الكَائنَات..

لا زَالَ يهطِل مُنذُهَا، منذُ سِبتَمْبِرٍ بعِيد، حَيثُ صَبيَّةٌ لَم تَنْزِل تمامَاً مِن ملكُوتهَا، وَهيَ سحَاب، سَحَابٌ في كَافَّةِ أنحَائِهَا..)

..

..

نَتَشَاغَلُ عَنكَ فَتَشَاغَل عَنَّا..

نَتَشَاغَل عَنكَ بالسِّكَّة، بالمطَرِ على النَّوَافِذ،

بالقُرَى العَابِرَة،

بالمحطَّات،

بالظِّلال،

بِالأمَل..

اترُكنَا فِي حَالِهَا مَرَّة..

اترُكنَا لِحُقُولِ الأبَـدِ البَيضَاء نَزرَعُهَا فَرَحاً وَانتظَارَات، لِلقُرَى السَّارِحَة في أبيضِهَا، لوَسَامَةِ الرِّيح تأخُذُنَا لِغيابٍ رَحِيم..

للعُذُوبَةِ مَرَّة..

لِليأَسِ الصَّغِيرِ نَنفُضَهُ بِحلمٍ وَطفُولَة..

اِنْسَنَا فِي ندَى الضَّحكَة، في إطرَاقَةِ الفَوَانِيس، في رَائِحَة العُشبة،

في لَحظَة،

لَحظَةٍ بأسْرِنَا يا أَلَم..

كلُّنَا سهوبكَ المنتَظَرَة

يا غَادِرَاً وَأكِيدَاً، نَحنُ العَادِيُّون، العَادِيُّونَ تَمَامَاً،

نحنُ النَّاس، أولادَ اليَأَسِ وَالأمَل

لسنَا بَعد،

خُذْنَا نَاصِعِين

نَاصِعِينَ يَا أَلَم..

..

..

... وَكَانت الأرضُ خَرِبةً وخَالية

على وجهِ الغَمرِ ظَلامٌ، وروحُ الله يَرِفُّ على وجهِ المياه..

وقالَ الله: لِيكُن نُور..‡

قُلتُ: نُور..

نورٌ فقط..

..

..

† أرق.

‡ الإنجيل.

سُترَةُ النبيَّة

«لو غريباً فقط قُربَ نهرٍ غريب».

بأَكمَلِها تنتَهِي الآن
ولن أَعودَ أبداً...

..

..

حينها لم تكن الحياة..
فجاءَ الموتُ وسِيمَاً في حُلَّتهِ الغامقة..
كانَ بسيطاً
وكانَ بدُونِك..

ثمَّ غَادرتُ وَحدِي،
كيلا أَكُونَ غريباً هُنَاك..

للمَرَّةِ الأُولَى منذُ زمن..
وما تبقَّى أسلمتُهُ ليل،
ليَسْتُرَ فيهِ مُدُناً غادرة،
شجراً أَسود..

أَسْلَمْتُهُ إله..

..

..

الذِّئَابُ على رسلها
تقتنصُ الطَّرائد،
من أَريافها الوديعَة..
لم يكفّها أحَد
ولا أُمٌّ حتَّى..

ملمسُ النَّابِ في الرُّوح،
أَتَذَكَّر..

كانَ بريئاً،
بريئاً تَماماً..

..

..

هَاهِي في البَعِيد
المدينَة..
عَوَاميدُها الصَّفرَاء،
بُيُوتُها الغضَّة..
شَجَرُ النِّيم،
الحِيشَان،
خُضرةُ البَنَات..

لا شيء بالمرَّة..
سِوَى سَفَرٍ في الأَخِير..
وَتَذَاكرَ مُرَّة..

..

..

ما مَضَى أحفظهُ

عَن ظَهرِ لَيل،

حِلكةً إثرَ أُخرَى..

أَكتمهُ غصَّة..

..

..

الذَّاكرة،

كلبُ السَّنوات

تنبحُ خلفَ عُمرِك..

تُنهشُ الأيَّام،

مهمَا تنأَى..

مهمَا تحاول..

فكيفَ الصَّبَاحَاتُ إذاً

وَبقعُ اللَّيلِ هُنا

تُبَللُّ المكَان..؟

وبقايا النَّدَم ..

كيفَ الصَّبَاحَاتُ إذاً..؟

..

..

ما كُنتَ لِتنجُو ..
مهمَا الحلم،
ستلِجُ الظُّلُمَات
من أَجملِ أَبوَابها،
ثمَّ لا تجدُ الأبوابَ أبدَاً
فالبابُ أنت..
والظُّلمةُ أنت..

لكنَّكَ جناح،
كيفَ تنطوي
والطُّيورُ لا تموت..؟
كيفَ تنطوي..؟

ستظلُّ غريباً هُناك..
تَغَطَّ إذاً..

رائحةُ النَّدم،
ستدُلُّ عليك..
رَ
ا
ئـ
حَ
ةُ البُكاء..
..
..

اليدُ النَّبيَّة
ستعرفُ الرُّوح،

تَأخذُها بعيداً

لِنَوَاحٍ خضرَاء،

تندَه المطَر..

ثمَّ تُزهرُ حُلماً..

في الأبديَّة الآسِرَة

ينزِلُ في سُفُوحٍ

مَغمُورةٍ بالحنَان..

ستفُوحُ قُرَىً،

من قَهوةِ سِكَّتهِا..

ويَهُبُّ وميض

على وحشَةٍ نَاصعة..

..

..

أضعتَ عزيزاً..

ابتدأَ العالم..

لِمَ مُتَّ..؟

لِمَ مُتَّ إذاً..؟

..

..

سَهْو

حَاملاً حُلُمَهُ المغرَوْرِقَ بالأثَر، وَمُحَاذرَاً من إهدَارِ وَهلة، يَمضِي مُتَفَقِّداً مَدائَنَ بُعْده؛ طَيرَ صبَاحَاته، طِينَ المسَاكن، شَجَرَ الحيشَان، مَاسحَاً بالحنَانِ الجَليلِ تُرَابَ فنَاءاتٍ غَابِرَة، رَائحةَ زمَانٍ مُتهَدِّم، مَقَابِضَ البِيبَان، أسِرَّةَ الحَديد، مَفَاتيحَ النُّور، رَائحَةَ الأَب، يَمضِي بِحلمِه غيرَ مُكتَرِثٍ للنُّقصَانِ الآسِر، لأهَازِيجِ العَدَم المقسُومَة للرِّيح، مَحفُوفاً بمَلامحَ مَرَّت، بِهَمٍّ ذَهَاب، في الشَّارِعِ القَديمِ لقَريَةٍ وَادعَة، كانَ المكَانُ مُلَثَّماً بعُشبِ الأَبَديَّة، يَجُوبُ الأرَضَ منذُ آمَاد، كَانَ مَليئاً بالأشيَاء المتروكَة:

(طُوبُ أخضَر، شَبَابيك، حِيطَانُ بيُوت، حِبَالُ غَسِيل، وَدَاعَات، بَشَرٌ غَارِبون)..

مَرُّوا..

.

.

.

بِمَعُونَةِ الموتِ يَمضِي، نَاجِيَاً من تَعقُّبَاتٍ شَرِهة، من رُمَاةِ هَدَر، من بُوصَلات، من عَوَاميدِ نُور، من قَنص، من شِرَاكِ حَنِين، مُحَاذرَاً من التَّعَبِ الأزَلِيِّ، من أَوقاتِ نَدم، من ندَاءَاتٍ عَذبةٍ لضِفَافٍ مُرَّة..

(ولا نُقطَة.. الأثرُ بِكَاملِ غَيماتِه لِي)..

عَائِدَاً بِهِ إلَى عَامٍ قَديم، لأنَّه الأجملُ عُمرَاً، لأنَّه المَحفُوفِ بنُورِ ابتسَامَةٍ هَاربَة، ربَّمَا هُنَاك سَينجُو برَمَادِ نجُومِه، بشَهقَةِ وَمضِه، بشَجَرٍ أخضَر، بسُكُون، مُخَلِّفاً حَرَّاسَ أثَرٍ مُنتَظرُين،

لَولا سِكَّتهِم لأمسَكُوا بغيَابه، سَاكبينَ أَمَلَهُ فِي سفوحِ عَدَم، في يأسٍ منذُ نَوَاحٍ عَميَاء..

.

.

وَحدهُ في المَقعَدِ الأَخير إذاً، قُربَ نَافذَةٍ رَحيمَة، يُرَاقبُ الحَيَاةَ عَابرَةً بأَنينه، يُرَاقبُ الحُزنَ مَفتُونَاً بالحُزن، يَحسبُ الوَقت بدَهشَة..

تَسترسلُ الحَافلاتُ في رحلاتِهَا لِمَحطَّاتٍ أخيرَة، هُنَاكَ بلا مُنتَظرِين، زُوَادَةُ الأُمَّهَاتِ انتَهَت مُنذُ زَمَن، الفَتَى مَحمُوماً وَمُبَلَّلاً بِمُكَمَّدَاتٍ قَديمَة، برَتاينَ منسيَّةٍ عَبرَ أزيزِ السَّنَوَات، حَالِماً بصَباحٍ رَقيق، مُستعَيداً مَمتلكَاتِ بَهَائه، بكَامِل أَنَاشيدِهَا، مُنذُ شَجَرِ البَرَازيليَا، وَشَمَالِ الحَلَنقَة، منذُ قَهوَةِ الفَجر، وعجوةِ الدَّكاكين، منذُ مَدَارس، حَالماً بأنَّ المَسكُوب لَم يَكُن سوَى اغفَاءَة، بأنَّه استَفَاقَ نَضرَاً يُغْدِقُ الحَنَانَ علَى الكَائنَات، يُغْدِقُ النُّورَ عَلَى الصَّباحَ، مُتَوَّجاً بثَمَرٍ وَطُفُولَة،

الفتَى أضرَّ بِه حَنانُ وَشَجَر، لا زَالَ قَيدَ فَلَوَاتٍ سَاهِيَة، يَنْدَهُ الرُّوحَ مِن أقَاليمِ نِزُوحهَا، لَو أنَّه انتَظَرَ هُنَاك، لَو تمهَّل قُربَ شَبَابيكَ زَرقَاءَ وَوَقت، لَو أوقَفَ الشَّاحنَاتِ تُهَرَّبُ لَحظَاتِه، لَو أنَّه..

لَـمَا عَبَرَ مُرَّاً بنُتُوءَاتٍ وَشَوَاهِد..

.

.

حَاملاً حُلُمَهُ وَمنتَبهَاً لَحظَتَهَا، مَهدُودَاً بأرَقِ المُسَاسَقَات، بضَياعِ النَّظرَة، بالْتبَاسِ مَدَاه، مُجتَاحَاً بأمَلٍ مُرّ، باسترسَالٍ بَاهظ، بسَحَابٍ بَعيد، بابتسَامَةٍ نَاصعَة، بمَشَاوير، بفَاكهَةٍ عَذبَة، بدروبِ قُرَى،

بمعنَىً،

وَمَنَاص..

لا أتَوَسَّل..

قَالَهَا لغيَابِه..

مَا تَبَقَّى أَثَر..

بِكَاملِ غَيمَاتهِ لي..)

..

..

زُرْقَة

هُنَا عِندَ كُلِّ شيَء..

فِي اللَّيلِ الَّذِي يَغمُرُ المدينَةَ بِزُرْقَةٍ صَافِيَة، فِي السُّفِنِ الَّتي سَكنَت عَلى أرصِفَتِهَا ولَم تُغَادِر، في الفنَارَاتِ تَذرُفُ في العُمرِ خُضرَةَ نُورِهَا وَلا تَنتَهي..

لا شَيء هُنَا يَنتهي، ولا أحَدَ يَنَام، فَالَّذِي يَعرِفُ البَحرَ لا يَنَام، المدينَةُ لا تَنَام، وَالفَنَارَاتُ لا تنَام، كلُّ الأكوانِ هُنا سَاهِرَة، كلُّها مُطمئنَّة، على الرَّصيفِ تَمضِي الشَّاحِنَاتُ بأثقَالها رَاضِيَة، تَمضِي حَيثُ طُرُقَاتُها المنتَظرَة، لا تَنتَهِي الشَّاحِنَاتُ يَومَاً وَلا الطُّرقَاتُ تَنفَد، وَلا الأرصفةُ تَضِيع، وَلا أحَدَ يَضيع، وَلا خَوفَ فِي البَحر، ولا نَارَ فِي البَحر،

فالبَحرُ سَلام، هُنا الله عِندَ كُلِّ شيء، فِي خَفقِ النَّوَارِسِ البيَضَاء، فِي أُغنَيَاتِها الفَجرِيَّة، فِي رَائِحَةِ الضِّفافِ البَعِيدَة، في لهَفةِ المَوج، في سِكَّةِ العَائِدِين، تَشدُو الأَنوَارُ عَلى المياهِ أَنَاشِيدَهَا القَدِيمَة، مثلَ طُفُولَة، لَمْ يَذهَب أَحَد، ولا أَحَدَ يَغيب، كُلُّ الأشياءِ هُنَا حَاضِرَة، وكُلُّها مُطمَئِنَّة،

وَكَأَنَّها الأبديَّة..

وكأَنَّها الوَهلَة..

كَيفَ أمضِي إذَاً..؟

كَيفَ أُغَادِرُ البحرَ والبَحرُ أيَّامِي الَّتي انْطَوَتْ، وَالبَحرُ أيَّامي التي سَتَجِيء..

وَالبحرُ ما لا يَغِيب..

ما لا يَغِيب..

علِّمْنِي أيُّها البَحر:

كيفَ تَبقى وَسِيمَاً هَكَذَا..؟

أَنتَ بَحر،

وأَنَا سُهَادُ البَحرِ فِي النَّاس،

قُل لي:

كيفَ أعبرُ يَابِسَةً عَلى هَذَا النَّحو..؟

..

..

مَطَرٌ عَلى فَاطِمَة

وَلِفاطمَة كُلُّ الدَّفَاتِر،
وَالفوَانيسِ القَديمةِ كي تَقَرَّ بها،
ولِي سفرُ الحَنينِ المُرِّ
والتَّعبِ الجَليل..

يَا فَاطمَة..
تبَّاً لسُوءِ القَلبِ،
تبَّاً للنَّوَايَا،
لِلمَشَاوِيرِ الغريبةِ وَالبُكَاء..
إنَّ الزَّغَارِيدَ اندِمَالٌ للمَنَافِي،
واقترابٌ للمَدَى..

وَلفَاطِمَة ما لَم أَقُلهُ مِن المدَى
وَلهَا النِّدَاء..

..

..

أُغمِضُ الدُّنيَا عَلى مَطَرٍ بَعِيد، يَفتَحُ البَعِيدُ شَبَابيكَهُ على فاَطِمَة، وكَأنهَّا البَعيد، وَكأنهَّا المطَر، وفَاطِمة نُورُ الأوقَاتِ الآتيَة، وَرَحمَةُ الآن..
فَاطِمَةُ الآن،
وفَاطِمَةُ سَفرٌ لا يَنتَهِي، وَنَوَاحٍ بَعيدَة،
تَمشِي رحيمةً عَلى الدُّنيَا، تَعبُرُ الأيَّامَ كلمحَةٍ مِن الضَّوءِ الجمِيل، وَلا تُخلِّفُ بعدها سِوى الضَّوءِ نفسِه، لا تَنتَهِي يَومَاً، فَاطِمَةُ طَعمُ الأيَّامِ الغَالِيَة ورَنَّةُ الفجر..

يا فَاطِمَة:
مِن أَينَ ينُبتُ اللَّيلُ هَكذَا يا فَاطِمَة..؟
وَمتى القَلبُ يَسجُد..؟
تَسْرَحِينَ فَأُشهِرُ التَّعَبَ على مَوَاعِيدِك، وَلا يَنزلُ المَطَرُ دُونَك،

وَكَأنَّكِ البَعِيد، وَكَأنَّكِ المطَر، وَلا شَيءَ بعدَكِ يا فَاطِمَة، وَلا أَنتِ ولا أنَا..

وَلا أَحَد..

وَلا أَحَدُ حَتَّى..

فَأوْدِعِينِي الَّذِي يَنتظِر، الَّذِي سيغَيب، أَوْدِعِيني الشَّبَابِيكَ الَّتي تُحبَّينَهَا، وَرَائِحَةَ المطَرَة، أَودِعيني مَشَاوِيرَ المغرِبيَّة، وَشَجَرَ اللَّيمُون، أوْدِعِينِى البُيُوتَ الصَّغيرَة، أودِعِينِي السِّكَّة، وَكُلَّ مَا هُنَاك، كُلَّ مَا هُنَاكَ يا فَاطِمَة، وكُونِي كمَا أَرَدْتِ أن تكُونِي لَعَلَّكِ تَرْضَيْن مَرَّة ، ولعلِّي أَطمَئنُّ بَعدك..

ومَن يَدرِي يَا فَاطِمَة، ربَّمَا لا شَيءَ بعد، رُبَّمَا زَمَانٌ بَطَعمٍ آخَر، ربَّمَا أيامٌ بَسِيطَة وَفَجرٌ رَقِيق، رُبَّمَا يَا فَاطِمَة، رُبَّما، فَقَد أنفَقتُ سَمَاءً وَمَشيت، وَكُنتُ عَلى نُور، وكُنتُ عَلى غُربَة، وَهَا نحنُ يا فَاطِمَة، هَا نَحن، وَهَا هُو اللَّيل،

هَا هُو اللَّيلُ فَانْظُرِي..

..

..

يَا فَاطِمَة

سَتَفُوحُ رَائِحَةُ الشِّتَاءُ

عَلَى شُقُوقِ البَابِ

يَنكَسِرُ الطريقُ على السِّيَاج..

سَيُطِلُّ ليلٌ إثرَ لَيل..

ويكونُ عُمرٌ دَاكِنٌ وَصَدَىً وحيد..

سَتَضِيعُ أُغنِيَةٌ تُسَمَّى فَاطِمَة،

... وَتَجِيءُ أُغنِيَةٌ تُسَمَّى فَاطِمَة

..

..

يَا فَاطِمَة..

..

..

.. يَا فَاطِمَة

..

..

عَرَاءَات

«العَالَمُ يبتعد، عليّ الآن أنْ أَحْمِلَك».

بول تسيلان

قُلتُ لكِ الهدَندَوَة هكذا..

وَاجِمونَ فِي المغَارِب،

ولايَنطِقُونَ الحزْنَ أبدَاً..

..

..

وإذاً لَمْ تَرفَعي جَبِينَكِ كُلَّ مَرَّة

كَي تُلَوِّحِي لِي..

هَكَذَا أَسلَمْتِنِي المسَافِرِينْ..

هَكذَا ذَهَبتُ غَرِيبَاً،

وَكُنْتُ عَلَى وَشْكِ أَنْ أُنَادِي عَليك..
وَلِوَهلَةٍ انتَابَتْنِي بُيُوت..
وَلِوهلَةٍ اقتَفَيتُ أَثَرَك..

لكنِّي تَذَكَّرْت..

قُلْتُ لا تَذهَب حمَيماً هَكذَا

فقَد تَعودُ وَحدَك..
لأنَّ العَرَاءاتِ عَلى كَاهِلِك..
لأنَّ اللَّيلَ مَهدُودٌ عَلَيك..

..

..

قُلتُ سَأقطَعُ بِكِ الوديَانَ وَالشُّعُوب،
وَأُتوِّجُكِ بِالقُرَى كُلِّهَا،
وأَمْشِيكِ على الأرصفةِ الأجنبيَّة،
وأُنْشِدُ اسْمَكِ في المعَابِد،

وأُعِيرُ قُمصَانَك للمَطَر،
كَيْ يَكُونَ حَنُونَاً تَمَامَاً..
وقلتُ لا تُمْعِنِي فِي الخفَاء،
لأنَّ الوَقتَ يَعبُر..

..

..

كَانَ الصَّمتُ رَحِيمَاً
لَوْلا رَنَّةَ الغِيَاب..

وَمَنحتُك النُّورَ كلَّه
فَتَقَاسَمَتْنِي العَتمَات..

ثمَّ أَوْصَيتُك بالكِتمَان،
كَي يأخُذَنِي الليلُ وَحدِي..

..

..

كُنْتُ أتعثَّرُ بالأمَل
كُلَّمَا رَافقتُ يَأسَاً حَنُونَاً..

وكنتُ فِي اللَّيلِ تَنْشُدُنِي نجومٌ غَاليَة..
ثمَّ تَمَاثَلْت..
وأوشكتُ أن أغفُو عَلَيك..
لَولا نَافِذَتُكِ تَفتَحُنِي عَلى غُربَةٍ سَاهِرَة..
..
..

كُنتِ تَنْسَيْنَ قَافِلَتي..
كُنتِ تَنسِينْ..

تَنسينَ قَافِلَتِي..

وكُنتُ أقولُ فِي سرِّي:

يا لهُ من تَعَب..

يااا لهُ من تَعَب..

وقلتُ لمرَّةٍ أخِيرَة:

يا ضَرَاكِ فِي هَذهِ البَرَاثِنْ..

..

..

عميق شكري للصديقين الكاتب محمد الصادق الحاج لقيامه بالتدقيق اللغوي والتحرير الداخلي لنصوص هذا الكتاب، والكاتب مازن مصطفى لقيامه بتصميم الغلاف، وإشرافه على طباعة الكتاب.

الشكر الجزيل لماهيتاب بركات والأصدقاء في الدوحة لكل ما يقومون به للتعريف بكتابتي.

أهدي هذا العمل إلى الطبيبَين الجليلين إبراهيم بدري ويورقان بدرسون، لما قاما به في سبيل أن أعيش معافىً، وإلى كل من التقيت بأوروبرو، وخصوصاً أسامة. وأحب أن أهدي هذا العمل أيضاً إلى أوسم الأصدقاء؛ النَّحّاس، رويم، وردة، وبالطبع الطيِّب، زرياب، قصي وأسامة عباس.

أهديه كذلك إلى العم سيف المثابر لأجل وطنٍ مستنير.

ودون شكٍّ أهديه بكامل المحبَّة إلى كسلا، إلى شوارعها الحنونة، بيوتها الخضراء وأهلها الطيِّبين، وإلى نورِ سيِّدي الحسن وهو يغمرها بسكينةٍ وحنان..